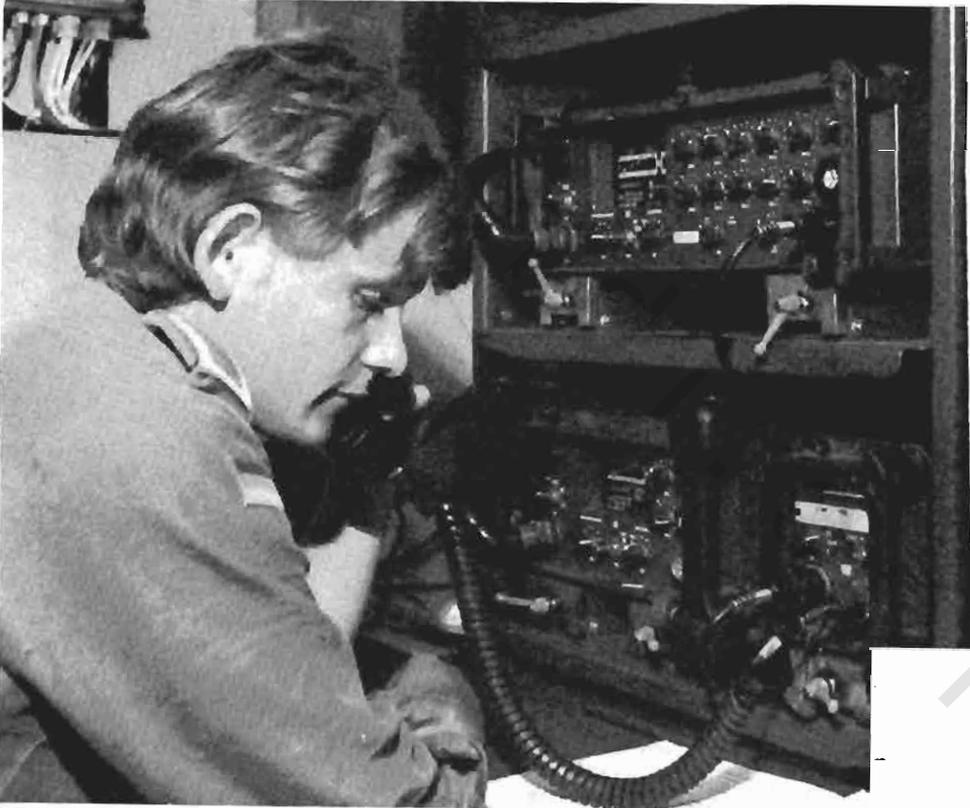


الفصل الخامس

جواسيس الحرب الباردة

انتبه الرأي العام الغربي إلى الخصومة السريّة مع روسيا بعد فضيحة التجسس على أسرار القنبلة الذريّة . ومع ازدياد توتر أجواء الحرب الباردة ، وخصوصاً في أوائل الستينات ، تصدّرت فضائح أعمال التجسس الناجحة لجاسوس متميّز ، العناوين البارزة في الصحف . وكانت بريطانيا وأمريكا وألمانيا الغربية من أكثر الدول المتضرّرة من تلك الفضائح . لكنّ انتصارات الجاسوسية لم تكن مُقتصرَةً على جانب واحد من الستار الحديدي . . .



غوردون لونسديل وحلقة بورتلاند

لم يكن هاري هوتون قد قام بالتجسس من قبل ، حتى اتصل به رجل يتحدث لهجة بولونية في إحدى الأمسيات من عام ١٩٥٥ . إذ زادت دقات قلبه سرعة عندما أخبره المتكلم ذو النبرة الهادئة على الطرف الآخر من الخط بأنه يحمل إليه رسالة من كاريتزيا . ولما اقترح الرجل موعداً للقاء بعد عدة أيام في قاعة دولويتس للفنون بجنوبي لندن ، وافق هوتون على الفور . فكان ذلك الموعد نقطة تحوّل في مصير هاري مكنه من احتلال مكانة بارزة في التاريخ . كأحد أفراد حلقة بورتلاند الجاسوسية .

كاريتزيا . . أعاد هذا الأسم دفقاً من الذكريات في ذهن هوتون . كان قد التقاها في وارسو بعد إرساله إلى هناك بفترة قصيرة للعمل كموظف مختص بالشؤون البحرية في السفارة البريطانية في عام ١٩٥٠ . لم يتأقلم مع الأجواء الدبلوماسية في الخارج - بعد ٢٠ عاماً قضاها في البحرية الملكية - فعبّر عن دهشته من الإسراف بالمشروبات في الحفلات مع أن بولونيا وقتها كانت تعاني من عجزٍ بسبب الحرب . فقال له زملاؤه : «إذا لم تجمع ثروتك هنا ، فأنت مُغفل» .

وهكذا ، شارك هوتون تجار السوق السوداء . وتلقى عنوان شركة في إنكلترا متخصصة بالتوريد للسفارات ، فحصل منها على امتياز توريد القهوة . وتجنّباً للتفتيش الجمركي وأجور الشحن ، فقد وصلت الطلبات داخل الحقيبة الدبلوماسية . جمع هاري ثروته بسرعة ، واستثمر بعضاً منها في إغراء المشتري البولونية السوداء العينين والفاحة الشعر المدعوة كاريتزيا . ولما عادت زوجته ، التي طلقها بعد فترة ، إلى إنكلترا ، زارته كاريتزيا في شقته خلصة . فكان يترك النور مضاءً لتعرف بأنه لوحدته عندما تنظر إلى نافذة غرفته من الشارع .

عاد هوتون مجبراً إلى إنكلترا في عام ١٩٥٢ ليعمل في مؤسسة تطوير الأسلحة المائتة السرية في بورتلاند . وأصبحت علاقته الغرامية مجرد حلم ، فبحث عن الاستقرار ، بعدما أصبح في منتصف العمر وصار يشرب بكثرة . فخطب إيثل غي ، التي كانت في منتصف العمر أيضاً وتعمل في سكرتارية القاعدة . ثم اشترى منزلاً معاً ، وكانا مشغولين بفرشه عندما وصلته تلك المخابرة الحاسمة .

وبينما كان الرجل الغريب يتمشى متمهلاً في قاعة الفن ، متظاهراً بأنه ينظر إلى اللوحات ، قال هوتون كلاماً مذهلاً . لقد عرفت السلطات البولونية بعلاقته مع كاريتزيا وتعاملهما في السوق السوداء . لذا فإن الفتاة يمكن أن تصبح في مآزق لأنها «لا يمكن الإعتماد عليها سياسياً» . وكان بإمكان هوتون ضمان معاملتها بتساهل - إذا قدّم معلومات عن القاعدة المضادة للغواصات .

ذهب إلى إيثل ، بعدما أثقلت الهموم كاهله ، واختلق تبريراً معقولاً للمخاطبة واللقاء : إن ألكس جونسون - الملحق العسكري للشؤون البحرية الأمريكية الذي عرفه في وارسو - عاد الى لندن وكان يهدده بفضح عمله السابق في السوق السوداء ، وهذا يعني إلقاءه في السجن ؛ لكنه سيسكت عنه إذا أخبره هوتون عما يجري في القاعدة ، لأن الأمريكيين يخشون أن يكون البريطانيون قد أخفوا حقائق عن آخر التطوّرات . وعرفت إيثل - التي انتظرت رجلها طوال عمرها - بأنها لن تفقده الآن . فوافقت على مساعدته .

استلم هوتون آلة تصوير نوع مينوكس ، بحجم ولاعة سجائر ، ليُصوّر الوثائق في المكتب . وكان لديه آلة تصوير أكبر وأفضل للوثائق التي يستطيع حملها للمنزل . وترافقت تعليمات اللقاءات بملاحظات تلميحية مزعجة عن إرسال إيصالات تأمين على الحياة له .

كان إسراف هوتون في تناول المشروبات غطاءً جيداً للاجتماعات السريّة . إذ هل يوجد مكان طبيعي لا يشتبه فيه أكثر من طاولات البارات التي كان يجلس عليها ؟ كان يقف ويديه كأس وفي يده الأخرى صحيفة مطوية . وكان شخص الإِتصال ليسأله فيما إذا كانت صحيفة المساء هي التي يحملها ، فيقول له بأنها نسخة الصباح ، ويسأل بعد ذلك عن نتائج سباق الخيل . من ثم يذهب الرجل إلى دورة المياه ، وعندما يلحق به هوتون بعد عدة دقائق ، كانا يتبادلان الأوراق . وكان هوتون يذهب في كل أول يوم سبت من كل شهر للقاء رجل الإِتصال ، «ألكس جونسون» ، ويسلمه أسراراً عن تنفيذ وتركيب غواصات ذرية ، وتفاصيل عن السفن الحربية المضادة للغواصات .

لكن هوتون لم يكن جاسوساً يفني بالغرض . في الحقيقة ، كان محظوظاً لتمكنه من الإفلات طيلة هذه الفترة . إذ قدّمت زوجته السابقة ورئيسه في العمل

تقاريراً عن كونه مخاطرة أمنية ، وعندما قدم زملاؤه في العمل تقارير عن كونه يأخذ وثائقاً معه إلى البيت ، نقله رؤساؤه إلى عمل أقل أهمية .

وأثار إسرافه الشكوك أيضاً . فصاحب رجال الأعمال والمزارعين مرة تلو مرة في الحانات العامة ، وكان أحد أعضاء جماعة السكيرين بعد منتصف الليل . كما أنه اشترى سيارة جديدة ، بينما كان معظم زملائه في العمل يركبون سيارات قديمة جداً . كان الروس يدفعون لهوتون بسخاء لقاء خدماته - بسخاء أكثر من اللازم . لكنه أصبح مصدر إزعاج في عام ١٩٦٠ عندما أخبرت وكالة الإستخبارات المركزية الأمريكية ملاحقي الجواسيس البريطانيين بأن ميشال غوليفيسكي ، المسمى سبنسر ، وهو ضابط استخبارات بولوني له علاقات مع الإستخبارات الروسية ، قد سمى مصدراً بريطانياً يسرب المعلومات السرية عن القوات البحرية باسم هيوتون .

بدأ رجال الشرطة يلاحقون الموظف في بورتلاند خلال رحلاته إلى فنادق شمال دورست . ووجدوا بأنه كان ينفق وراء الباب أكثر مما كان يكسبه . فلاحقوه إلى لندن حيث اجتمع «بألكس جونسون» . وتعرف الرجال المكلفين بالمراقبة على شخصيته من رقم السيارة ، ليجدوا بأن اسمه غوردون لونسديل - الذي كان ظاهرياً رجل أعمال كندي يُؤجّر الفونوغرافات^(١) للحانات والنوادي .

وُضِعَ الرجلان تحت المراقبة طيلة الوقت . إذ احتاج مكتب مكافحة الجاسوسية العسكرية البريطاني للدليل قبل اعتقالها ، وفكروا بأن مراقبتهم لهوتون ولونسديل ستقودهم إلى القبض على جواسيس آخرين . وعملت زوجات رجال الإستخبارات المكلفين بالمراقبة في هذه المهمة ، للتأكد من أن الهدفين لن يألفا الأوجه التي تلاحقهم . وسجلت ميكروفونات تُشغّل عن بعد المحادثات بين الرجلين . ولاحقتهم الطائرات المروحية وأسطول من السيارات أثناء تجوالهم في لندن .

تم فحص محتويات حقيبة أودعها في أحد البنوك سراً من قِبَل رجال مكافحة الجاسوسية العسكرية في بريطانيا ، بعد أن تحدّث رئيس الوزراء هارولد ماكميلان مع مدير المصرف . واحتوت تلك الحقيبة على معدات تجسس ، كان بينها ولاعة سجائر ذات قاعدة خشبية مجوّفة - خبيء فيها مجموعة أوراق الشيفرة . وانتقل

العملاء الى شقة ملاصقة لشقة لونسديل قرب ساحة الحكام ، والتقطوا رسائل برقية مُرسلة برموز المورس من موسكو .

كان لونسديل ، الذي كان أيضاً يدير عملية لسرقة أسرار من قاعدة تصنيع الغواصات الذرية في هولندي لوتش ، قد أعطي هوتون أوامر محددة خلال اجتماعهم في لندن . إذ أراد أن يعرف كل شيء عن آسديك (جهاز سبر اعماق سري للغاية يُمكنُ السُّفن الحربية من تحديد مواقع غواصات العدو) . لكن هوتون وقتها لم يكن في مركز يمكنه من الحصول على معلومات كهذه . بينما كانت إيثل تعمل في نفس المشروع ، وتطلع على أوراق مشروع آسديك بصفتها موظفة كاتبة في مكتب التخطيط .

كان أمراً بسيطاً بالنسبة لإيثل أن تنقل سبعة كراسيات خضراء الغلاف إلى مغلف بني اللون . ثم نزلت من المبنى والمغلف تحت إبطها ، دون أن يلمحها أحد - سوى بعض المارة . وقابلت هوتون في موقف للسيارات . في اليوم التالي ، ذهبا بالسيارة الى لندن ليُسلمها الوثائق إلى لونسديل خارج مسرح أولدفيك ، قرب محطة القطارات في واترلو . وما أن تناول الجاسوس حقيبة التسوق التي تحتوي على الأسرار من يد إيثل ، حتى طوّقهم المارة الذين كانوا يتمشون بشكل طبيعي في الشارع - كان المارة رجال الإستخبارات وزوجاتهم .

وبعد عدة دقائق ، قرع رجال الشرطة جرس منزل شخص أجنبي في شارع فرعي هاديء في ضاحية رويسليب بلندن . وقالوا للرجل الذي فتح الباب بأنهم كانوا يحققون في شكوى سطو ليلي على المنازل في المنطقة ، ويعلمون القاطنين الإجراءات الأمنية الواجب اتخاذها كي لا تتكرر تلك الحوادث . فدعا الرجل الضباط للدخول ، دون أن يستغرب مهمتهم - حيث أن منزله كان قد اقتنم مرتين خلال الأسابيع القليلة الماضية . ولم يعرف بأن «السارقين» الذين اقتحموا منزله في المرتين كانوا من الإستخبارات .

رغم انه اشتغل ببيع الكتب ظاهرياً ، إلا أن بيتر كروغر ، مع زوجته هيلين ، كانا صلة رئيسية في حلقة التجسس . وتم الكشف عن نشاطاتها عندما لاحق المخبرون لونسديل إلى منزلها ؛ حيث وجدوا في المنزل هوائي جهاز لاسلكي بطول ٢٢,٥ متر (٧٤ قدم) يمتد من حجرة الجلوس إلى الدور العلوي ، وجهاز

إرسال لاسلكي مع جهاز تحكم بالذبذبات قوي جداً ، ومعدات تجسس أخرى تحت أرضية المطبخ . كما وجدوا قارورة قسمها العلوي متحرك ومشعل كهربائي يعمل بالبطارية خلف صورة معلّقة لطفلين . كان الزوجان كروغر يبعثان برسائل لاسلكية تتضمن الأسرار التي يجمعها العملاء في جميع أنحاء بريطانيا إلى الكرملين .

كانت السلطات تأمل بأن تُوقع بعملاء آخرين من هذه الشبكة بتأخير الإعلان عن الاعتقالات الخمسة لمدة ٤٨ ساعة ، لكن أنباء هذه الاعتقالات تسرّبت قبل ذلك وكتب مدير أمن حزب العمال جورج ويغ : «إن الله وحده يعلم كم جاسوساً من عصابة التجسس السوفييتية قد حصلوا على المعلومات السرية وسربوها خارج إنكلترا . - والجدير بالذكر أنه أصبح كالشوكه في حلق حكومة ماكميلان خلال السنوات الثلاث التالية عندما تالت الفضائح . وادعى الكاتب والصحفي تشايمان بينشر بأنهم أُجبروا على الإسراع بالإعتقالات بعدما عرفوا بأن لونسديل وكروغر خططا للهرب حال حصولهما على أسرار مشروع أسديك . وقال لونسديل للمحققين : «لم نتوقع أن تفعلوها بهذه السرعة» .

ادعى لونسديل لدى بدء المحاكمة في عام ١٩٦١ بأن الزوجين كروغر كانا بريئين ، وأنه وضع المعدات في منزلها أثناء غيابها عن البيت . لكن استخبارات مكافحة الجاسوسية العسكرية في بريطانيا فحصوا بصماتها مع الاستخبارات المركزية الأمريكية ، فأثبت تطابق البصمات أن الزوجين كانا جاسوسيين الإستخبارات الروسية المُحتَرَفِين . موريس ولونا كوهين ، الذين نجيا من الإعتقال قبل سنوات خلال حملة أمريكية ضخمة لتطويق الروس . ولم يكن لونسديل بدوره كما بدا . إذ كشفت التحريات عن كونه الجاسوس كونون تروفيموفيتش مولودي ، وقد انتحل اسم شخص كندي ميت .

حُكِم على لونسديل بالسجن لمدة ٢٥ عاماً ، وأُطلق سراحه في عام ١٩٦٤ أثناء عملية تبادل أسرى مقابل إطلاق سراح غريفييل واين ، رجل الأعمال البريطاني المسجون في موسكو ، والذي سنأتي على قصته فيما بعد . ومات رئيس الحلقة السوفييتي في عام ١٩٧٠ . ولحق به في العودة للوطن الزوجين كروغر - الذين أطلق سراحهما في مبادلة لإعادة جيرالد بروك ، المُحاضر البريطاني المسجون من قِبَل الكرملين بسبب توزيعه لمقالات معادية للشيوعية .

لم يعد هاري هوتون أو إيثل غي ذوي نفع بالنسبة للروس . فأمضيا ١٠ سنوات من أصل حكم السجن لمدة ١٥ عاماً الذي صدر بحقهما ، وأطلق سراحهما في عام ١٩٧١ . تزوجا بعدها وغيرا اسميهما ، واستقرا في حياة مجهولة هادئة . ثم كتب هوتون مذكراته فيها بعد - وأصرّ بأنه كتبها ليبريء ساحة إيثل لا من أجل المال - وادعى بأن لونسديل كان مجرد ساع ينقل الرسائل ، وأن قائد الحلقة الحقيقي ما زال يعمل على نطاق واسع في بريطانيا .

كان مخطئاً بالنسبة للونسديل . فكما الزوجين كروغر ، كان مساعداً ثميناً للإستخبارات الروسية . وفي آخر محاولة يائسة منه لتحذير موسكو من أنه على وشك أن يقع بأيدي السلطات ، قاد المخبرين للإيقاع بجاسوس آخر ، أصابت أعماله التخريبية بريطانيا والغرب بأضرار فادحة . . جورج بليك .

(١) الفونوغرافات هنا هي الجكبيكس وتعني الخزانة المشتملة على فونوغراف آلي يُتيح للمرء سماع الأغنية المسجلة التي يختارها بمجرد وضع قطعة نقدية في ثقب خاص .

اهتزت أستراليا لدى الإعلان عن فضيحة الأعمال التجسسية بعدما انشق فلاديمير بيتروف - الدبلوماسي العامل لدى السفارة الروسية في كانبه - في شهر نيسان من عام ١٩٥٤ ، وكشف عن أنه كان رئيس أعمال التجسس السرية التابعة للإستخبارات الروسية . وصل بيتروف إلى مكان آمن في الوقت المناسب ، لكن زوجته - التي كانت تعمل أيضاً كضابطة في الإستخبارات الروسية - اقتيدت إلى طائرة متجهة إلى موسكو دفعها إليها عميلين أرسلوا على وجه السرعة لإعادة الزوجين لموطنها . ومع ذلك تمكنت من المطالبة بحق اللجوء السياسي أثناء توقف الطائرة للتزود بالوقود في داروين . واغتاز الروس من الأحداث فقطعوا العلاقات الدبلوماسية ، ثم أخذوا سفارتهم بعدما تركوا أعمالهم بأيدي السويسريين .

ذُهل الشعب الأسترالي عندما كشفت هيئة ملكية تحقق بأقوال بيتروف عن محاولة الكرملين دسّ جواسيس محليين في الحكومة - تم وضع ثلاثة منهم في مكتب زعيم حزب العمال المعارض فعلاً .

جورج بليك؛ خِدَع مميّته لعميل مزدوج :

صُغِقَ الرَّأْيُ الْعَامُ الْبَرِيطَانِي فِي أَيَّارٍ مِنْ عَامِ ١٩٦١ عِنْدَمَا أُعْلِنَ عَنْ أَنَّ جَاسُوساً يُدْعَى جُورْجَ بَلِيكَ قَدْ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ لِمُدَّةِ ٤٢ عَاماً . وَكَانَ هَذَا حُكْماً طَوِيلَ الْمُدَّةِ يثيرُ الدَّهْشَةَ مَقَارَنَةً بِالْأَحْكَامِ الصَّادِرَةِ بِحَقِّ نَانِ مَايِ وَفُوحْسٍ وَجَاسُوسٍ حَلَقَةٍ بِوَرْتَلَانْد . فَمَا الَّذِي فَعَلَهُ بَلِيكَ ؟ لَقَدْ عُقِدَتِ جَلْسَةُ الْمَحَاكِمَةِ سَراً ؛ لِصَلْحَةِ «الْأَمْنِ الْوَطْنِي» ، وَرَفُضَ رَئِيسُ الْوُزَرَاءِ هَارُولْدُ مَآكْمِيلَانَ أَنْ يَفْشِيَ الْحَقَائِقَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْقَضِيَّةِ ؛ رَغْمَ الْمَحَاوَلَاتِ الْعَدِيدَةِ مِنْ جَانِبِ مَعَارِضَةِ الْعَمَالِ لِإِثْرَةِ الْمَوْضُوعِ فِي مَجْلِسِ الشَّعْبِ . وَفِي النِّهَايَةِ ، وَافَقَ عَلَى قَوْلِ تَصْرِيحِ سَرِيِّ مُقْتَضِبٍ لثَلَاثَةِ مِنْ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ الْعَمَالِ الْإِسْتِشَارِيِّ - لِيُخَفِّفَ مِنَ الْفُضُولِ . لَكِنَّ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ كَانَ لَهُ فِعْلٌ عَكْسِي .

وُلِدَ بَلِيكَ فِي رُوتْرَدَامِ عَامَ ١٩٢٢ ، وَكَانَ أَبُوهُ أَلْبِرْتٌ وَيْلِيَامٌ بِيَهَارَ - يَهُودِيٌّ مِصْرِيٌّ يَحْمِلُ جَوَازَ سَفَرٍ بَرِيطَانِيٍّ - وَأُمُّهُ هُولَنْدِيَّةٌ . وَانْضَمَّ جُورْجُ بِيَهَارَ ، عِنْدَمَا كَانَ فِي الْعَشْرِينَاتِ ، لِلْمَقَاوِمَةِ الْهُولَنْدِيَّةِ ضِدَّ الْإِحْتِلَالِ النَّازِيِّ ، لَكِنَّهُ أُجْبِرَ عَلَى الْهَرُوبِ إِلَى بَرِيطَانِيَا ، حَيْثُ انْتَسَبَ إِلَى مَنظَمَاتٍ سَرِّيَّةٍ لِيَتَابَعَ نِضَالَهُ ضِدَّ أَلْمَانِيَا وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ ، غَيَّرَ اسْمَهُ إِلَى بَلِيكَ وَعَمِلَ كضَابِطِ اسْتِخْبَارَاتٍ مَعَ فِرْقَةِ الْمُتَطَوِّعِينَ الْبَحْرِيَّةِ الْإِحْتِيَاطِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ .

وَانْتَقَلَ إِلَى وَزَارَةِ الْخَارِجِيَّةِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْحَرْبِ ، حَيْثُ قَدَّرُوا عِبْقَرِيَّتَهُ فِي مَجَالِ اللُّغَوِيَّاتِ بِسُرْعَةٍ . وَلَمَّا جَلِبَتِ قَضِيَّةُ فُوحْسٍ قَوَانِيناً جَدِيدَةً ؛ مِنْ حَيْثُ التَّأَكِيدُ عَلَى أَنَّ يَكُونُ جَمِيعُ الْعَمَالِ الْمَدِينِيِّينَ مِنْ بَرِيطَانِيَّةِ الْمَوْلَدِ ، كَانَ بَلِيكَ وَقْتَهَا يَعْمَلُ ككُنَائِبٍ لِلْمَسْتِشَارِ - وَعَمِلَ لِلْإِسْتِخْبَارَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ - فِي كُورِيَا ثُمَّ أُلْقِيَ الشِّيُوعِيُّونَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ ، وَاقْتَادُوهُ إِلَى مَعْسَكِرٍ تَحْقِيقٍ فِي كُورِيَا الشَّمَالِيَّةِ حَيْثُ بَقِيَ فِيهِ عِدَّةٌ أَشْهُرٍ . وَأَنْكَرَ أَحَدَ الْمَسَاجِينِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَنَّ يَكُونُ قَدْ تَعَرَّضَ لَغَسِيلِ دِمَآغٍ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ ، وَقَالَ بِأَنَّ بَلِيكَ صَمَدٌ بِشَجَاعَةٍ أَمَامَ سَجَانِيهِ .

عَمِلَ فِي بَرَلِينِ أَوَائِلَ عَامِ ١٩٥٣ لِصَالِحِ الْإِسْتِخْبَارَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْبَرِيطَانِيَّةِ ، حَسَبَ التَّعْلِيمَاتِ الْمَعْطَاةِ إِلَيْهِ لِتَسْلِيلِ جَمَاعَةِ جَاسُوسِيَّةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي كَانَتْ - خِلَالَ الْخَمْسِينَاتِ - خَطَّ الْمُوَاجَهَةِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ أثنَاءَ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ . وَكَانَتْ لَنْدُنُ رَاضِيَةً ، لِأَكْثَرِ مِنْ سَنَتَيْنِ ، عَنْ عَمَلِهِ الْجَاسُوسِيِّ الْمُعَقَّدِ وَالْمُرَبِّكِ



George Blake

- جورج بليك : الجاسوس المزدوج .

كعميل مزدوج . وكان عليه بشكل طبيعي أن يقدم أسراراً معينة للروس حتى يكسب ثقتهم . وبقي رجال الإستخبارات العسكرية البريطانية واثقين من أنهم يحصلون على أكثر مما يعطون - بينما كانوا مستغفلين في الحقيقة .

وقدّم اعتقال جاسوس ألماني وانشقاق أحد الأقطاب في عام ١٩٦١ دليلاً متأخراً عن كون بليك عميلاً ثلاثياً . كان الجاسوس وقتها في بيروت . وأعطى التنصت على رسائله المرسلة إلى موسكو ، التي تُحذر من أنّ غوردون لونسديل كان على وشك أن يُعتقل ، الدليل الأخير الذي احتاجه مكتب الإستخبارات العسكرية البريطانية . وبنفس الأسلوب الذي استعمل مع كيم فيليبي بعد سنتين ، أُرسِل عميل إلى لبنان ليناقدش موضوع عمل جديد مع بليك في لندن . وبينما استطاع فيليبي الهروب إلى روسيا ، عاد بليك إلى انكلترا ، دون أن يدري بأن أمره قد افتُضح ، فتمّ اعتقاله .

حاولت حكومة ماكميلان الإبقاء على سرية المحاكمة من منطلق أن العملاء الذي خانهم بليك كانوا لا يزالون يُسحبون إلى ما وراء الستار الحديدي . في وقتها تمّ تطويقهم جميعاً - فاغتالوا بعضهم وسجنوا بعضهم الآخر . وانكشف أمر أكثر من ٤٠ عميل معادي للشيوعية في جميع أنحاء العالم . كما كان هنالك المزيد من الصدمات التي أذهلت أعضاء مجلس العمال الإستشاري - كالزعيم هوغ غايتسكل ونائب الرئيس جورج براون والوزير السابق إيمانويل شاينوبل - عندما سمعوا حقائق مقتضبة من السيد ماكميلان وسكرتيره لشؤون مجلس الوزراء نورمان بروك . صور بليك في برلين كل وثيقة سرية وصلت إلى مكتبه تقريباً ، وسلم الصور الفوتوغرافية للإستخبارات الروسية . حيث اختبىء في المكتب بعدما أقفله رجل الأمن أثناء فترة الغداء ، وعمل دون أن يُزعجه أحد . وأخبر الروس عن تنقلات الألمان الشرقيين البارزين والذين انشقوا ليعملوا مع الغرب ، فأفسح المجال أمام الإستخبارات الروسية لاختطافهم وإعادتهم خلف الستار الحديدي . كما خان سر أحد أكثر مشاريع الغرب طموحاً وتكليفاً - العملية ذهب (غولد أوبرايشن) . كانت هذه العملية مشروعاً مشتركاً بين الإستخبارات المركزية الأمريكية والإستخبارات العسكرية البريطانية لبناء قناة لتسجيل الرسائل الألمانية الشرقية والروسية في برلين الشرقية . تم التخطيط لهذا المشروع في كانون الأول ١٩٥٣

واستغرق تنفيذه ثلاثة أشهر متواصلة من الحفر . حيث بدأ من موقع محطة رادار جديدة قرب مقبرة في رودو، أي في القَطَّاع الغربي في برلين ، وامتد حوالي ٨,٠ كم (٢/١ ميل) تحت أسلاك الحدود الشائكة ، وتحت مستوى سطح الأرض بـ ٧,٣ متر (٢٤ قدم) .

وَصَلَّتْ أنابيب ضخمة بقطر ٢,١ متر (٧ أقدام) حجرات ضخمة تحتوي على معدات تحكُّم ، ومقسم هاتف ومعمل تكييف هواء . ومكنت ميكروفونات معقدة للغاية ومضخات للصوت وآلات تسجيل وأجهزة برقية ولاسلكية مُستَرقِي السمع والبريطانيين والألمان والأمريكيين من التنصت على ٤٠٠ محادثة في وقت واحد . وتم وصل خطوط هاتفية للتنصت على مكاتب الحكومة الألمانية الشرقية والمقر الرئيسي للإستخبارات الروسية في كارلشورست وبريد قيادة الجيش السوفييتي ، مع وصلات لموسكو وعواصم أخرى من مدن حلف وارسو .
خلال فترة فصل الشتاء الأول ، بدأت الحرارة المتصاعدة من النفق تُذيب الثلج الذي على سطح الأرض فوّه . فتم تركيب نظام تبريد بسرعة على طول السقف ، أثناء العمل على حل شيفرة الرسائل التي التقطتها الأسلاك الممتدة الى الغرف السرية .

وفي ٢٢ نيسان ١٩٥٦ ، بدأ حرس الحدود الألماني الشرقي وفريق عمل من الإستخبارات الروسية بالحفر فوق نهاية النفق الشرقية . وأعطى الإنذار وقتاً لمسترقِي السمع ليهربوا ، وكان على الإستخبارات الغربية أن تشاهد بِخزي كيف استغلّ الروس الدعاية من وراء «اكتشافهم» ، فنظموا رحلات سياحية لعدد كبير من الناس - قُدروا بحوالي ٤٠٠٠٠ شخص .

كان رجال الإستخبارات المركزية الأمريكية قد شكّوا منذ عدة أشهر بأن النفق قد تمَّ اكتشافه . وتوقفت حركة الإتصالات السلكية من المكاتب التي كانت مراقبة بشكل دراماتيكي . وتأكّدت شكوكهم بعد اعتقال بليك . إذ ادّعى فيما بعد بأنّه أخبر موسكو عن المشروع حالما وافقوا على التعامل معه . فهل تم تضليل الغرب عن عمْد لمدّة ثلاث سنوات ؟

وتتابعت أعمال بليك الخيانية في الشرق الأوسط . ففي عام ١٩٥٨ ، كشف المصريون شبكة التجسس البريطانية كلها في المنطقة . فتم اعتقال بعض

العملاء ، وكان على آخرين حاصلين على الحماية الدبلوماسية في السفارات أن ينسحبوا على عجل . وهدد الرئيس عبد الناصر بأن يقول أسماء جميع الجواسيس عبر إذاعة القاهرة . لم يفعل ذلك مطلقاً ، لكن استغرق الأمر سنوات عديدة لإنشاء شبكة بديلة .

لم يكن لدى الرئيس عبد الناصر أي سبب ليحبّ البريطانيين . فقبل سنتين ، أرسل رئيس الوزراء أنطوني إيدن قوات إلى السواحل في أزمة السويس ، كما كانت هنالك شكوك عن أن الإستخبارات العسكرية البريطانية كانت متورّطة في ذلك الوقت بمؤامرة مع بعض المتمردين المصريين في محاولة لاغتيال الزعيم المصري - وكانت تلك مؤامرة لم توضع قيد التنفيذ مطلقاً . لكنّ السبب الرئيسي وراء عملية عام ١٩٥٨ لم يكن للانتقام ، إذ أنّ الكريملين كان على وشك أن يمدّ الرئيس عبد الناصر بالأسلحة ، ولم يريدوا أن يتواجد حولهم جواسيس بريطانيين للإخبار عن الواقعة . وبفضل بليك لم يفعلوا .

هل كان قادة بليك مخطئين إذ سمحوا له بمعرفة الكثير؟ قال نقاد الإستخبارات العسكرية البريطانية ، عندما أُخبروا بأن على العميل المزدوج أن يُضحى ببعض الأسرار ، أنه بتلقيه الكثير من المعلومات الحيوية يُعرضه للإبتزاز أو التعذيب إذا أُلقي القبض عليه - ويقع اللوم على القيادة إذا ثبت بأنه خائن . أطلق الكولونيل تشارلز غيلسون ، رئيس القسم الروسي في الإستخبارات العسكرية البريطانية في القارة حتى حوالي عام ١٩٥٨ ، النار على نفسه في روما بعدما تقاعد . وكانت المشاكل المادية السبب الرئيسي الذي دفعه لفعل ذلك . أمضى بليك ، الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد كيم فيلبي من حيث أكثر خونة الإستخبارات العسكرية البريطانية إضراراً ، جزءاً يسيراً من حكم السجن لمدة ٤٢ عاماً الذي صدر بحقه . ففي ٢٢ تشرين الأول ١٩٦٧ ، كسر قضيب نافذة اسمنتية صديء في سجن وورمودز سكرابس في لندن ، واختفى . ثم عاد للظهور ثانية بعد فترة قصيرة في موسكو . وهكذا اعتنت الإستخبارات الروسية بأحد العملاء المشتغلين لحسابهم - وقد كان لديه وقتاً كافياً لكتابة وداع ساخر . إذ كانت مهمة بليك أن يعتني بهيئة السجن . ففي يوم هروبه ، أدخل جميع النفقات والدخل في حسابات المُستأجر ، ثم أضاف ملحوظة إعتذار - لأن وقته لم يتسع لإضافة الإجمالي .

ويليام فاسول : العمّة فيرا في الأدميرالية

حُكِمَ بالسجن على ويليام جون كريستوفر فاسول ، الجاسوس في الأدميرالية البريطانية ، لمدة ١٨ عاماً في عام ١٩٦٢ . وقال بعد إطلاق سراحه : «لا يمكن أن أقرن كلمة خائن بي ، لأنني ببساطة ضحية للظروف» . وأضاف : «لو كان الموقف العام من الشذوذ الجنسي متسامحاً كما هو عليه اليوم ، لكننت لم أتورط بما فعلته» . من الممكن أن يكون رئيس الوزراء السابق هارولد ماكميلان قد تعاطف مع تلك الكلمات ، التي قالها فاسول بعد إطلاق سراحه ، بعدما تقاعد . لكن في وقتها أضافت العاصفة التي أثارها إدانة فاسول والتحقيق التي تبعتها مع الإستخبارات ما بدا وكأنه سلسلة لا تنتهي من الفضائح التي هزت حزب المحافظين الحاكم في أوائل الستينات . وتبيّن فيما بعد بأن فاسول كان مختلفاً عن جورج بليك وغوردون لونسدیل وكلاوس فوخس وكيم فيليبي . كان أولئك الجواسيس عملاء مُكرّسين وعباقره انحرفوا - أي فعلوا ما فعلوه لأسباب أيديولوجية بينما كان فاسول مجرد رجل خائف يُثير الشفقة أُجبر على خيانه بلده بعدما وقع في فخٍ نُصِبَ له بِخُبث .

وضع الروس أعينهم على ابن القسيس ذو الـ ٢٩ عاماً كهدف للإبتراز - عندما وصل ليعمل كموظف في السفارة البريطانية في موسكو عام ١٩٥٤ . كان للإستخبارات الروسية عملاء في المبنى يعملون كحرّاس أو مترجمين ، فلاحظوا كيف عومل القادم الجديد الوحيد والمخنث بازدرء من الدبلوماسيين الذين قدّروا خطورة محاولاته للإرتقاء في منصبه . كما أعطوا أوامر صارمة تذر منه ، وذكره على الدوام بعجرفة بأنّ على الموظفين الثانويين أن يحافظوا على مكانتهم . بادرت الإستخبارات الروسية بالخطوة الأولى ، فدبروا لقاءً في المطعم مع فتاة جميلة جذابة . لكنّ فاسول لم يُبدِ اهتماماً بها . فأعادوا الكرة ثانية مع مرافق مُذكر . وظهر بوضوح أنّ فاسول كان مهتماً به أكثر . فعرف رجال الإستخبارات أنّ بالإمكان الإيقاع به في الشرك . ومع ذلك تركوه لمدة عام كامل ، حتى يستقرّ في عمله ويصبح عضواً موثقاً به في السفارة . ورافق سيغموند ميخائيلسكي - أحد رجال الإستخبارات الروسية العاملين في السفارة - الذي قدّم تذاكر لحفلة باليه وأوبرا بولشوي ، وعرفه على بعض الأصدقاء البريطانيين والروس ؛ بعضهم شاذين جنسياً .

أثناء فصل الشتاء الثاني الذي قضاه في موسكو ، دعاه أحد رفقاته إلى حفلة في شقة خاصة في فندق برلين ، وأغدق عليه الفودكا والويسكي والبراندي حتى سَكِرَ فاسول . فاقتادوه إلى غرفة داخلية ، ونزعوا عنه ثيابه ، ومددوه على ديوان ، وكان شبه واعٍ لرجال آخرين يخلعون ثيابهم ، وتمّ التقاط صور
بعد شهرين ، دعي أحد الضباط الروس فاسول إلى شقته في البلدة .
وحصل بينها إعجاب متبادل ، أو هكذا بدا . وكان الرجلين مستقلقيان على السرير عندما اقتحم عليهم ضابطان باب الغرفة . ارتدى العسكري ثيابه بسرعة وغادر دونما كلمة . وعرضوا على فاسول المرعوب والدليل صوراً التقطت له في فندق برلين . وقيل له بأنه كان ملاحقاً منذ وصوله إلى موسكو . وأنه ارتكب جريمة

William Vassall



- وليام فاسول .

خطيرة في نظر القانون السوفييتي . وعلى أية حال ، لا أحد يرغب بسماع وقائعها أو الإبلاغ عنها - إذا كان مستعداً للتعاون .

أطبق الفخ على فاسول وعرف ذلك بنفسه . فافتضح أمره يعني اقتياده للسجن في موسكو أو لندن - حيث كان الشذوذ الجنسي يُعتبر جريمة كبيرة . كما سيكون هنالك مهانة اجتماعية وربما دعاية عالمية عن الحدث . فوافق بهدوء على أن يُصبح جاسوساً .

اختبره قادته الجدد في البداية ، فطلبوا منه أسماءً وأعمالاً كانوا يعرفون عنها مسبقاً ، ليتأكدوا من ولاءه . وأعطوه في يوم عيد الميلاد عام ١٩٥٥ ٢٠٠٠ روبل ، حوالي ٥٠ جنيهاً ، وتبع ذلك مظاريق مليئة بالأموال . فلم يعد بإمكانه إعادة التفكير بالأمر أو الاعتراف . وقال فاسول فيما بعد : «لقد كان الأمر كالوقوع في شباك العنكبوت . لقد تم التخطيط للأمر بذكاء بالغ جداً . فلم أعد أستطيع الإفلات . ووجدت نفسي أتورط أكثر فأكثر» .

بدأت استثمارات الروس تؤتي ثمارها في تموز عام ١٩٥٦ . فعاد فاسول إلى لندن ليعمل كمساعد شخصي لنائب مدير قسم الإستخبارات البحرية في الأدميرالية . ومرت أضيابير تضمنت معلومات أمنية وعمليات استخباراتية حديثة من على مكتبه في ساحة حرس الخيالة المشرف على حديقة شارل دونينغ ، ١٠ يومياً .

وكان لدى فاسول كل مساء عمل إضافي ، أثناء عودة رجال الأمن إلى منازلهم في الضاحية . لم يحمل حقيقة مطلقاً - لأن الإستخبارات الروسية أعلموه بأن لا يحمل حقيقة في يده ، كي لا يوقفوه في نقاط التفتيش . وبدلاً من ذلك درس وثائق سرية بين صفحات جريدة التايمز التي حملها دائماً مطوية بعناية تحت إبطه .

كما كان بإمكان الموظف الذي يتقاضى راتباً أسبوعياً يصل لـ ١٤ جنيهاً في الأسبوع أن يذهب بسيارة أجرة إلى شقته التي استأجرها بـ ١٠ جنيهات في الأسبوع قرب ساحة دولفين والتي وضع في أرجائها تُحفاً باهظة الثمن . وكان بإمكانه استعمال سكين ورق خاصة وضعها في مكان محبباً من حقيبته وفتح درج صغير مخفي فيها ، حيث يجيء كاميرا صغيرة ، اشتراها من السوق الحرّة في مطار روما ، والتي سجل فيها كل ما يمكن أن يكون ذا قيمة للروس .

لم يكن عمله محدداً بالوقت - فنادرأ ما طلب منه الروس وثائق محددة - فكان لديه متسع من الوقت للتجول في أنحاء البلدة ببدلته الفاخرة ، ويستمتع بأمسياته في الأوبرا والمسرح الغربي ، وتناول مشروب في ناديه الهاديء ، وعشاء مع أصدقاء مهذبين ، أوزيارة أحد النوادي الليلية التي تقدّم ما يرضي ذوقه . وفي العطل الرسمية ، سافر «خارج البلاد» ، ليزور في الغالب سيدات يكبرنه سنأ كانوا مأخوذين بسحره المتأنف . واللواتي اكانوا يعتقدن بأنه «شيء هام في وزارة الخارجية» . وشجع فاسول على زيادة جو الغموض ، بإلقائه تلميحات عن تركات ووسائل خاصة ليوضح ثراءه الظاهر . ونجح نفس الأسلوب في المكتب . ولحق به اسم فيرا من موسكو ، مع زيادة كلمة العممة قبله للتضليل . وقد عومل على أساس كونه شخص من المحتمل كونه شاذ جنسياً ومنطوقاً على نفسه . ولم يعتبره أحد كمخاطرة أمنيّة .

ووصف فاسول أعماله التخريبية فيما بعد بأنها : «ليست ممتعة ، ولكنها خفيفة» . وفي إحدى الليالي ، التقى بعميل الإتصال المرسل من الإستخبارات الروسية ، غريغوري ، في مجلس العموم . وبعد بضعة كؤوس من المشروب في زاوية هادئة ، ذهب فاسول لأخذ معطفه ، الذي كان يحتوي وقتها على فيلم في جيبه ، لكنه لم يجد المعطف ، ووجد معطفاً آخر يشبهه في مكانه .

حاول فاسول تهدئة أعصابه .. ثم ترك اسمه مع مدير الحانة . وفي اليوم التالي اتصل بهم . نعم ، لقد اتصل بهم أحد الأشخاص وقال بأنه أخذ معطفاً غير الذي يخصّه بالخطأ . اتصل فاسول بالرقم الذي أعطاه إياه المدير . وأجاب رجل على الطرف الآخر ، وقال بأنه يعمل مع الاسكوتلانديارد .

ذهب الجاسوس إلى الموعد المحدد في ساحة ترافالغار وهو خائف من الإعتقال . حيث قابل الرجل الذي تحدّث معه في الهاتف ، فتبادلا التحية والمعاطف ، ثم افترقا . وتحسّس فاسول جيب المعطف ، فوجد أن القلم الثمين مازال في مكانه .

عندما تصدرت أخبارا إعتقالات جواسيس حلقة بورتلاند صفحات الجرائد ، قابل فاسول عميل الإتصال قرب مجلس العموم ، فأخبره العميل بأن يوقف نشاطاته - إذ لا يدري أحد عن كمية المعلومات التي حصل عليها مكتب

مكافحة الجاسوسية العسكرية البريطاني من لونسديل وهوتون وغبي والزوجين كورغر . ذهب الموظف في الأدميرالية الى الخارج أثناء الإجازات واستثمر شهادات إذخار وحصص في سوق الثروة الحيوانية . وكان وقتها لا يزال يتقاضى أجره من الإستخبارات الروسية .

بعد عام واحد ، أمره الروس ببدء عمليه ثانيةً . وكان في تلك الفترة قد ترقى إلى وظيفة السكرتير الخاص المساعد لقائد الأدميرالية المدني توماس غالبرايت ، مع ميزة الإطلاع على آخر التطورات في الغواصات البحرية الحربية وأجهزة سبر الأعماق . لكن أيام نشاطاته شارفت على نهايتها .

تمكنت الإستخبارات المركزية الأمريكية في شهر كانون الأول من عام ١٩٦١ من كسب منشق خطير إلى صفها في هلسنكي ، والذي اتضح فيما بعد أنه الميجور في الإستخبارات الروسية أناتولي غوليتسين . وكان الرجل الذي أتى بدليل إدانة دافع عن خيانة كيم فيلبي . كما كشف عن أنّ الكرملين كان يتلقى معلومات غاية في السرية عن الإستخبارات البحرية البريطانية .

ولم تستغرق الإستخبارات وقتاً طويلاً حتى ضيقت الخناق على فاسول بعد أن علمت بهذه الأنباء الخطيرة ، وتأكدت شكوكهم لما وجدوه يعيش في مستوى لا يتناسب مع دخله . وأثناء ما كان فاسول يستعد لمغادرة مكتبه في ١٢ أيلول ١٩٦٢ بعدما جمع المال اللازم لرحلته إلى إيطاليا ، نظر خارج نافذة المكتب ، فرأى سيارة غير مألوفة في موقف السيارات الرسمي . وبدخلها كان يوجد ثلاثة رجال ينظرون بحدة باتجاه مدخل المبنى الذي يمر منه .

أسرع بالخروج من مخرج آخر للمبنى ، لكنه تأخر كثيراً . كتب لاحقاً : «لقد كان هنالك سيارات أخرى ورجال آخرون ملاحهم قاسية وباردة ، تقدموا باتجاهي . فوقعت بالفخ .» كما اعتلجت في صدره مشاعر أخرى : «لقد شعرت بارتياح عميق ورائع» ، واعترف بالقول : «لم أستطع أن أفعل ذلك بنفسي . كما لم يكن بالضبط شعور من يرى أشخاصاً قادمين لنجدته ، لكنه شعور من أراد أن يتحقق شيء ما منذ وقت طويل فصدق حدسه أخيراً .» .

كانت محاكمته ، بتهمة تسريب معلومات سرية للعدو طيلة الفترة الواقعة

ما بين ١٨ آب ١٩٥٦ و ١١ أيلول ١٩٦٢ ، محاكمة شكلية . وحُكِّم عليه في ختامها بالسجن لمدة ١٨ عاماً . وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٣ ، تم استئناف محاكمة ثلاثة رجال . كان القاضي اللورد رادكليف قد اقترح فتح التحقيق مجدداً في النواحي الأمنية من القضية . وقالت تقارير الصحف بان وجود جاسوس في الأدميرالية كان معروفاً لفترة ١٨ شهر منذ اعتقالات بورتلاند ، ومع ذلك لم يحدث شيء بهذا الصدد . كما أشارت تلك التقارير إلى علاقة وثيقة مشبوهة بين فاسول ورئيسه في العمل غالبرايت .

وتمكنت المحكمة من تكذيب كلاً الادعائين وتبرئة سلحة غالبرايت واللورد كارينغتون - أول رئيس للأدميرالية - من تهمة الإهمال . وأثناء جلسة سماع أقوال الشهود ، حُكِّم بالسجن على اثنين من الصحفيين لرفضهما الإطّلاع عن مصادر معلوماتها ، ليتأكداً من أن عمل فاسول المشين سيبقى متصنّراً عناوين الصحف . تم إطلاق سراح الجاسوس نفسه من سجن مايلدستون في عام ١٩٧٢ لحسن سيره وسلوكه ، واختفى في غياهب دير ساسيكس تحت اسم مستعار . ونهاد للظهور لفترة وجيزة في عام ١٩٨٠ عندما تمّ عرض قصته على شاشة التلفزيون في مسلسل عن الجواسيس . وكان فلسفياً إلى حد كبير لدى الكتابة عنها بشكل ، فقال : «إنني لا أكره أحداً ، ولا حتى الاستخبارات الروسية . إنهم كانوا يقومون بعملهم ، ولدينا أشخاص مثلهم هنا أيضاً ، أليس كذلك ؟ ولم يكن ما حدث معي شيئاً شخصياً . لكنّه كان يشعر بالمرارة من شيء واحد فقط - كيف سُمِّح لأظنوني بلانت بالعيش بحرية لمدة ١٥ عاماً بعد اعترافه بالقيام بالتجسس . فقال فاسول : «أودّ أن أتابع حياتي بالطريقة التي سُمِّح له بها أن يعيش حياته» .

عبث أحد عملاء الاستخبارات الروسية بالسرير الذي استخدمته الملكة أيرلندية خلال زيارتها لألمانيا الغربية في عام ١٩٦٥ . كان مارتين ماراغراف ، الذي تخفى بجيئة نادل ، يعمل في فندق بطرسبورغ الفخم قرب نهر الراين في مدينة بون ، عندما وصلت الملكة مع زوجها الأمير فيليب . فأخفى ميكروفوناً صغيراً خلف طنّده سريرهما المزيج ، ثم استخدمه لالتصوير

روبرت لي جونسون : مجند حاقدا في الجيش الأمريكي .

كان الرقيب روبرت لي جونسون أحد مساوئ الحياة - جندياً فظاً سكيراً ومقامراً . لكن كان على المجند بالإكراه أن يزود موسكو بحصاد غني من البذار ، المزروعة في أرض يباب ، والمرعية لمدة عشر سنوات .

كان موظفاً عسكرياً لدى الجيش الأمريكي في برلين عام ١٩٥٢ ، عندما تم تجاوزه من ترقية استحق نيلها ، لكنها ضاعت منه لأن رؤساءه لم يرشحوه لنيلها . فقرر أن أفضل طريقة ينتقم بها هي أن ينضم للروس ، ويصبح نجماً إذاعياً ، يث البرامج الدعائية للغرب . لكن الضباط السوفييت الذين تقدم بطلبه إليهم لاحظوا خلال وقت قصير بأنه لم يكن من نوع المواطنين الذين يرحب بهم الكرملين . فاقترحوا عليه طريقة أخرى ليثأر من الأفعال الجائرة التي لحقت به - بالتجسس . تحمس جونسون في البداية ، فصوّر كل ورقة استطاع أن يجدها تقريباً . لكن الروس المغلوبين على أمرهم طلبوا منه أن يكف عن ذلك ، واقترحوا عليه مواضيع معينة تهمهم بدلاً من التي كان يجيء بها . ووجد جونسون ، الذي كان موقفه الأمني ضعيفاً ، صعوبة في الحصول على وثائق كذلك المطلوبة . فأنقضت اهتمامه بالتجسس وعندما انتقل للعمل في فرنسا لم يعد مفيداً لموسكو ، فأوقفت الإستخبارات الروسية الإتصال معه . ولما ترك الخدمة العسكرية في عام ١٩٥٦ وعاد إلى أمريكا ، فقد ما يملك من مال في القمار ، وعاش على الدخل غير الشريف لموسم إيطالية أصبحت زوجته فيها بعد ، عاود الروس الإتصال به في عام ١٩٥٧ . وعرضوا عليه راتباً شهرياً قدره ١٥٠ جنيهًا مقابل تفاصيل عن الصواريخ الأمريكية . فعاد إلى الجيش الأمريكي برتبته القديمة . وتم إرساله كحارس لقاعدة صواريخ بالوس فيرديس في كاليفورنيا .

أرضى جونسون قاداته الإستخبارات الروسية بتقديمه مخططات وصور للصواريخ وآراء شاملة عن إمكانياتها وحتى عينه من القود الصاروخي . وتابع تجسسه عندما انتقل إلى قاعدة في إل باسو بولاية تكساس . بعدها أرسل إلى ما وراء البحار مرة ثانية - إلى أورليانز بفرنسا ، حيث ضاعف الروس الضغط على جنديهم الحاقدا .

حصل لزوجة جونسون انهيار عصبي - الأول في عدة انهيارات تبعته - في عام ١٩٦٠ ، وأدخلت إلى مستشفى عسكري في باريس . فاقترح ضابط الاستخبارات الروسي فيتالي سيرغيفيتش أوزهورموف على جونسون بأن يطلب عملاً في العاصمة الفرنسية بتأثيره على مشاعر قاداته . وأصبح في آذار من عام ١٩٦١ ، حارساً في مركز مراسلات مطار أورلي العسكري .

كان على الغرفة الإسمتية المحصنة خلف الأسلاك الشائكة في زاوية مراقبة أرض المطار حراسة مشددة طيلة ساعات اليوم وعلى مدار السنة . وكانت واحدة من أكثر المراكز البريدية أهمية في العالم ، فالوثائق التي كانت ترسل من وإلى واشنطن كانت تُستلم فيها . كما كانت الأوامر وتغيير الرموز الصادرة لأسطول الولايات المتحدة الأمريكية في البحر الأبيض المتوسط وقواعد الجيش الأمريكي وآخر الاستراتيجيات التي يضعها حلف شمال الأطلسي للدفاع عن أوروبا تمرُّ عبر قبة الغرفة الفولاذي المحصن والمحروس ببوابتين فولاذيتين . وخطط الروس طويلاً للوصول الى طريقة تمكنهم من الوصول إلى داخل قلعة الأسرار «الحصينة» . وأصبح جونسون الآن جواز مرورهم الغير مرغوب باستعماله .

وساعد القانون القاضي بعدم السماح للوطنيين الفرنسيين بالاطلاع على إجراءات التخليص الأمنية الأمريكية جونسون على الحصول على الوظيفة . لم يكن في سجل ماضيه العسكري شائبة ، وحصل على تزكية من الضباط ، الذين لم يعلموا بأن الجيران سمعوا زوجة جونسون تتهمه بالقيام بالتجسس خلال شجاراتها الزوجية المتتالية والعالية . ولما أصبح رجلهم بأمان ضمن هيئة العمل ، استفسر منه الروس عن النظام داخل المركز . فشرح جونسون كيف أن الباب الأول للخزنة الأرضية كان محمياً بقضيب معدني ومجموعة من الأقفال . في كلا الجانبين وكان للباب الداخلي قفل معقد يفتح بالفتاح - لكن لا يستطيع أحد ، ولا حتى الجنرال نفسه ، أن يفتحه بمفرده .

قيل لجونسون أن يبقى في القبو ويعلم المزيد عن الخزنة الأرضية دون أن يثير الشكوك من حوله . فتنطوع بالعمل لإعادة طلاء جدران الحجره الخصوصية الداخلية البيضاء عندما طُلب شخص للقيام بالعمل ، واستطاع أن يقدم تقريراً عن عدم وجود نظام إنذار سرّي في الداخل . بعد عدة أشهر ، غادره ملازم شاب

لعدة لحظات وتركه بمفرده عندما انفصلا أثناء عملية تسليم أوراق للخزنة ، فحصل جونسون على قالب لفتح باب الغرفة الداخلية بالمعجون الذي أعطاه إياه الروس . كما حصل على تركيب أجد أقفال القضيب الحديدي عندما كتبه ضابط جديد بإهمال على ورقة ليحفظه ، ثم رمى بالورقة في سلة المهملات ، لكن تركيبة القفل الأخير بقيت مخبئة .

تطوع جونسون للقيام بجمع الأعمال المسائية وخلال العطل ، عندما كان يترك حارس واحد فقط . وفسر طلبه بأنه بحاجة لإجازات أثناء أيام الأسبوع لزيارة زوجته في المستشفى . وأعطاه الروس كاميرا مينوكس صغيرة للتقاط صور للقفل المعقد من جميع الزوايا . كما أعطوه فيما بعد يقرص معدني مستدير ومخروط معدني بطول ٢٢,٨ سم (٩ إنش) . وكان عليه أن يربطها بطرفي القفل ، ويبقى بعيداً لمدة ٣٥ دقيقة لأن كمبيوتر فك الأقفال كان يُصدر أشعة راديوية .

أكمل جونسون العملية خلال عمله من الساعة ١٨,٠٠ من مساء يوم السبت وحتى الساعة ٦,٠٠ من صباح الأحد . وبعد ثلاثة أسابيع أعطاه رؤساؤه السوفييت الأرقام اللازمة لفتح القفل الرقمي .

في هذه الأثناء ، انضم دبلوماسي آخر يدعى فيليكس اليكساندروفيتش إيفانوف ، يعمل كجاسوس للاستخبارات الروسية ، للعمل مع أور زهورموف في باريس . كانت عملية جونسون قد أصبحت واحدة من أولويات موسكو ، واحتاجوا لرجلين للتأكد من عدم ظهور تعقيدات مفاجئة . وتكرر العمل الروتيني ، فكان على جونسون أن يأخذ الوثائق من الخزانة الأرضية ويسلمها لأحد المتحكمين على طريق عام منعزل في الساعة ١٥,٠٠ ، وكان عليه أن يعود لأخذها ثانية من أمام بحيرة مهجورة قرب مقبرة على بعد ٨ كم (٥ أميال) في الساعة ١٥,٠٣ ، وإعادتها إلى الخزانة . وإذا لم يتم اكتشاف العملية الليلية ، كان عليه أن يلقي بعلبة سجائر لاكي وعليها علامة X قرب حجرة هاتف عمومي بطريقه إلى المنزل .

خطط الروس لكل شيء ، فأعطوا جونسون حقيبتين عليهما علامة شركة الطيران الفرنسية (AIR FRANCE) . وكان عليه أن يُسلم الوثائق في واحدة ، ويستلم الأخرى التي تحتوي على زجاجة كونياك مخلوط بمادة مخدرة وأربع حبات ترياق . فإذا وصل أي شخص بشكل غير متوقع إلى المركز قبل مواعي التسليم

أو الإستلام ، كان على جونسون أن يعرض عليه المشروب لِيُنِيمَهُ لمدة عدة ساعات . وإذا أُجبر جونسون على الشرب من الكونياك ذاته فإن أقراص الترياق كانت ستمنع تأثير المَوتَم في جسمه . كما تدرّب جونسون على مخطط للهروب في حال حدوث خطأ ما وافتضح أمره ، باستخدام جواز سفر كندي باسمه ، مُجَباً مع نقود وتعليمات داخل «صخرة» مجوّفة في حقل يبعد ١٦ كم (١٠ أميال) خارج باريس ، وكان عليه الهروب إلى بروسلز . وسيتم الإتصال به في Chaussee de Foret باستخدام رمز مميّز يعتمد على دولار فضي أمريكي يعود لعام ١٩٢١ . قام جونسون بسرقة الخزانة لأول مرة في ١٦ كانون الأول ١٩٦٢ ، واستغرق فتحه للأقفال الثلاثة واستخراج حقيبة مليئة بالمظاريب الضخمة المصنوعة من ورق المانيللا^(١) ، والتي تحتوي على أوراقاً حمراء وزرقاء ، مدّة دقيقتين فقط . وفتح فريق من الخبراء الروس في السفارة الروسية بباريس - أرسلوا خصيصاً عن طريق الجزائر - بعناية كل مظروف ، ونسخوا محتوياته ، ثم أعادوا إغلاقه ثانية ؛ بينما كان جونسون أثناء ذلك جالساً في المركز يراقب الساعة حتى جاء موعد الإستبدال في الساعة ٣، ١٥ . نجحت الحيلة تماماً ، وقام بإعادة العملية في يوم الأحد التالي . وبعد عيد الميلاد بوقت قصير ، أخبره قاده بأن الكرمليين كان مسروراً من جهوده التي بذلها وأنه رُقّي إلى رتبة مييجور في الجيش الأحمر ، ومُنح علاوة قدرها ٢٠٠٠ دولار . وقد تمّت قراءة بعض أكثر الوثائق أهمية من قبل نيكيّتا خروتشيف شخصياً .

اغترّ جونسون من هذا المديح والتقدير ، وشعّر بأنه استطاع النيل من الجيش أخيراً . وأصبح عليه أن يتسلل إلى الخزانة مرّة خلال أربعة أو ستة أسابيع ، بموافقة المكتب السياسي^(١) في كل مرّة . وصار هذا الجاسوس هاماً جداً ، فطلب منه أن يقلل من المخاطر التي قد تكشف أمره .

أصاب الرعب موسكو ، عندما بدأت الأمور تتخذ منحنياً غير المخطط له ، رغم التخطيط المدروس بدقة فائقة . فإثناء موعد الـ ٣، ١٥ . للإستلام في شهر شباط ، تعطلت سيارة جونسون القديمة رفض محرّكها أن يدور ، فأمضى مع رجل الإتصال ٢٠ دقيقة يحاولون بياس متزايد تشغيلها قبل انبلاج الفجر . وتمّ إعطاء

(١) - المكتب السياسي = اللجنة التنفيذية في حزب شيوعي .

(١) - المانيللا تعني قنب المانيللا (نوع من النباتات) .

جونسون بعدها أموالاً ليشتري بها سيارة مرسيدس . وشعرت شبكة الهروب بالذعر لأن جونسون نسي أن يُسقط علبة السجائر الفارغة . وعنى ذلك تمضية يومين في كتابة التقارير التوضيحية للمفكرين الروس . من قاداته الذين عانوا كثيراً من جراء ذلك . وحصلت غلظة أسوأ في شهر نيسان . إذ استسلم جونسون للنوم قبل مواعده ١٥, ٠٣ . وخاطر إيفانوف المذكور بالذهاب للمركز وإسقاط الحقيبة المملوءة بالأسرار في سيارة جونسون . وصحا الجاسوس في الوقت المناسب ، وكان يعيد إغلاق القفل الأخير عندما وصل الحارس البديل .

أخبر الروس جونسون بأنه لم يتمكن من الإفلات لأن مراسلاً وصل بشكل غير متوقع ، ورفض عرضه بشرب الكونياك . لكن الضباط الذين يعمل تحت إمرتهم عرفوا بأنه كان يكذب ؛ إذ لم يصل مراسلون في صباح الأيام الأحد مطلقاً . وخافوا بأن يكون قد انكشف أمره وصار يعمل لصالح الأمريكيين ، لذا طلبوا منه إيقاف جميع العمليات خلال فترة الصيف . وقيل لجونسون بأن السبب هو قصر ليالي الصيف . وخلال شهر أيلول ، ستعود عملية سرقة الخزانة .

لكن هذا لم يحصل ، لأن جونسون حصل على ترقية ، وانتقل للعمل في مقر القيادة الرئيسي في منطقة السين ، ثم عاد إلى واشنطن ، حيث أرسلت زوجته لمتابعة علاجها النفسي والعصبي . وكان أمل الروس أن يستطيعوا الاستفادة منه فيما بعد إذا انتقل للعمل في البنتاغون . لكن حياة جونسون العائلية غير المستقرة جعلت ذلك أمراً مستحيلاً . ففي شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٤ ، تشاجر مرة أخرى مع زوجته ، وغادر منزلها في أرلينغتون بسبب إصراره بالقهر في لاس فيغاس . وكونه قد ترك الخدمة العسكرية فقد استجوبه رجال الاستخبارات الأمريكية . ولدى التحقيق مع زوجته ، اتهمت جونسون بالقيام بالتجسس . عرض جونسون ، الذي استسلم للشرطة مخموراً ومفلساً ، أن يصبح جاسوساً معاكساً لصالح الاستخبارات الأمريكية ، لكنهم لم يتقبلوا عرضه . عندها بدأ يسرد تفاصيل تجسسه «الإنتقامي» من أمريكا .

حكمت المحكمة الاتحادية عليه بالسجن لمدة ٢٥ سنة في ٣٠ تموز ١٩٦٥ . وصدر الحكم عليه بالإدانة ، لكن الرأي العام الأمريكي عرف القليل عمّا فعله . حتى خبراء الجاسوسية الأمريكية لم يستطيعوا تقدير مدى الضرر الذي تسبب به

بالضبط . لكنهم افترضوا بأن الروس قد يكونوا قد شاهدوا جميع الوثائق التي مرت على أورلي بين ١٦ كانون الأول ١٩٦٢ و ٢١ نيسان ١٩٦٣ . واعترفت وزارة الدفاع بالقول «خسائرتنا فادحة . فبعضها لا يمكن إصلاحه ولا تقديره . ولو أننا لاحظنا النقص ووجود الحرب ، لكان الضرر أقل تأثيراً» .

بعد المحاكمة بوقت قصير ، بدأت الطائرات الأمريكية تحمل أنباءً جديدة بالتصديق عن تطورات الأحداث الأخيرة عن إمكانية قيام حلف شمال الأطلسي بشن حرب جرثومية وذرية على المدنيين في أوروبا الغربية والشرق الأوسط . وزادت سرقة جونسون للوثائق الأصلية من تصعيد حملة التقارير عن الرعب المتزايد بعدما ساعدت على تسريب أنباء كاملة .

وحصل أربعة من الفريق الروسي الذي شارك بإدارة عمليات جونسون على أعلى وسام روسي - وسام لينين . لكن قصة جونسون انتهت بنفس الأسلوب الذي عاش حياته يستخدمه . ففي ١٨ أيار ١٩٧٢ ، زاره ابنه روبرت - الذي شارك في حرب فيتنام - في سجن لويسبرغ في ولاية بنسلفانيا ، وغرز سكيناً في صدر الجاسوس البالغ من العمر ٥٢ عاماً . ومات جونسون خلال ساعة من طعنه بالسكين .

سُجِن فرانك بوسارد ، الموظف في وزارة الطيران ، لمدة ٢١ سنة في لندن عام ١٩٦٥ لأنه سرّب أسراراً للروس ، ووقع في النهاية بجهاز يصدر إشارات كهربائية مُرفق بالأضابير الهامة . كان مشكوكاً بأمر بوسارد مسبقاً ، لكن مكتب مكافحة الإستخبارات العسكرية البريطاني احتاج لدليل يقدمه للمحكمة . فعندما أخذ أحد الملفات الهامة من المبنى ، لاحقوه إلى غرفة في الفندق ، وألقوا القبض عليه بالجرم المشهود وهو يُصوّر أسرار الطائرة في الداخل .



وَجَّهَتْ لأحد أعضاء مجلس البرلمان البريطاني تهمة التجسس لصالح إحدى بلدان الستار الحديدي في عام ١٩٧٠ . واعترف ويل أوين - عضو حزب العمال في البرلمان ، عندما كان عمره ٦٨ سنة ، حتى قَدَم استقالته من منصبه بعد أن وَّجَّهَتْ إليه التهمة - بأنه استلم ٢٣٠٠٠ جنيه من رجل يعمل في السفارة التشيكوسلوفاكية عُرِفَ عنه بأنه جاسوس ؛ مقابل اعطائه معلومات هامة حصل عليها بصفته عضواً في لجنة التقييم في مجلس العموم . ورغم أن هيئة المحكمة برأته بحجّة أن تلك المعلومات لم تكن من الأسرار الرسمية التي حوكم بتهمة تسريبها ، فقد تم تغريم أوين مبلغ ٢٠٠٠ جنيه قيمة أتعاب المحاكمة . وأصرَّ المنشق التشيكوسلوفاكي ، الذي دُلَّ رجال مكافحة الجاسوسية العسكرية البريطانيين لى أوين ، على أن عضو البرلمان سلّم أسراراً عسكرية خلال فترة ١٥ عاماً من مهنة التجسس التي تقاضى عنها راتباً شهرياً قدره ٥٠٠ جنيه . مات أوين في نيسان من عام ١٩٨١ .

غيلوم : الجاسوس الذي أطاح بالمستشار الألماني .

أَجْر جاسوس جريء رجل دولة عالمي على تقديم استقالته في عام ١٩٧٤ .
إذ استقال المستشار الألماني الغربي ويلي براندت في ٦ أيار من ذلك العام ، وبعد
اسبوعين كُشِفَ عن أنّ مساعده غونتر غيلوم ، لأكثر من ثلاث سنوات ، كان
مأجوراً من قِبَل الإستخبارات الألمانية الشرقية .

وصل غيلوم مع زوجته كريستيل إلى ألمانيا الغربية في عام ١٩٥٦ ، مُدْعِياً
بأنه لاجيء سياسي من برلين الشرقية . واستقرّاً في فرانكفورت حيث أصبح
عضوياً في الحزب الديمقراطي الإشتراكي . ولما أُعجب العمال المحليون
بالترامها ، تمّ تعيينها في العضوية العاملة للحزب ، حيث أكسبتها مقدرتها
التنظيمية مسؤولية التنظيم وصدقات مع أشخاص ذوي نفوذ . وعملوا بصبر حتى
حظيوا بمكانة بارزة في عام ١٩٦٩ ، فانتقلا للعاصمة الألمانية بون للعمل
كمساعدين لممثلي ولاية هيس في بداية الأمر ، ثم في مبنى السفارة الإتحادية ضمن
مجموعة السيد براندت .

أعجِبَ براندت بغونتر ، كعامل وصديق في آن معاً ، وأصبح هذا الأخير
المساعد الشخصي والصديق الحميم للمستشار خلال فترة قصيرة . وفي صيف عام
١٩٧٣ ، كان غيلوم الموظف الوحيد الذي رافق القائد الألماني الغربي وعائلته في
الإجازات إلى منتزه على إحدى البحيرات في الزويج ، حيث اطلع هناك على كل
برقية سرية مُرسلة من بون .

إحدى تلك البرقيات كانت من الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ، يصف
فيها محادثات أنهاها توأ مع رئيس الوزراء الفرنسي . وكشفت تلك الرسالة عن
تصدعات ضمن تحالف حلف شمال الأطلسي قد تصبح خطيرة لو عرف بأمرها
العدو . وفعل غيلوم ذلك بالضبط ، فأعطى المعلومات السرية لزوجته ، التي
كانت تعمل كسكرتيرة في مكتب حكومة الدولة ، فسلمتها بدورها لمراسل ألماني
شرقي .

كان غيلوم قد عمِلَ كمراسل في ألمانيا الشرقية إلى أن تمّ تجنيده ليعمل
كجاسوس ، لذا كان خبيراً في نسخ كل وثيقة أمنية سرية وصلت إليه . وقامت
كريستيل بتسليم الطرود لشبكة المراسلين مرّة كل شهر لمدة ١٥ سنة . وقد غُلِّقت
الطرود غالباً بأوراق ملونة لتبدو كالهدايا .

لكن أحد الضباط العاملين في مكافحة الجاسوسية في ألمانيا الغربية كان وراء تقديم الزوجين للمحاكمة في أواخر عام ١٩٧٣ . واستغرق إثبات إدانتهم تسعة أشهر ، حتى تمّ اعتقالهما أخيراً في ٢٤ نيسان ١٩٧٤ في بادغود سبرغ . وهزّت الفضيحة أرجاء ألمانيا الغربية وصعقت منظمة حلف شمال الأطلسي . فتم التحقيق في سياسة براندت الهادفة لإجراء محادثات قصيرة مع موسكو على الفور . وقدم المستشار استقالته بعدما دُمرت مصداقيته من قِبَل الرجل الذي وثق به ليعمل كضابط ارتباط لدى الحزب والاتحادات التجارية .

عُقدت جلسات المحاكمة التي استمرت ستة أشهر في قاعة محكمة جدرانها مانعة للصوت في محكمة الدولة العليا في دوسلدورف . وتمّ سماع أقوال الشهود بسريّة ، وخصوصاً عندما كان السيد براندت يُقدّم دليله . ووُجد بأن غونتر كان مذنباً لخيانته وخرقه لسرية المعلومات الرسمية ، فحُكم عليه بالسجن لمدة ١٣ عاماً . ورفض أن يستأنف الحكم ، واكتفى بمضغ الحلويات بلا مبالاة أثناء ما أصدر القضاة الخمسة قرارها بالحكم عليه بالسجن . وتشاءت زوجته كريستيل عندما صدر الحكم بسجنها ثماني سنوات لخيانتها وتسريبها لمعلومات سريّة . وقد انقصت المحكمة ستين من الحكم الذي طالب به الإدعاء ، وقال القاضي بأن خيانة الزوجين كان أسهل بسبب «المراقبة غير الكافية والمتأخرة ، لنشاطاتهم» من قِبَل ملاحقي الجواسيس في ألمانيا الغربية . وقد اقترح خارج المحكمة أن يُلاحق السيد براندت قضائياً بتهمة الإهمال . لكن تحطّم مستقبله المهني اعتُبر عقوبة كافية .

لم يأتِ الألمان الشرقيون على ذكرهما لمدة ٢٠ شهراً بعد اعتقال الزوجين . وبعد صدور الحكم ، تقدموا بطلب للسماح لهم بزيارة السجنين .

وبدأت مناقشات ساعية لإطلاق سراحهما . وقد أُطلق سراح كريستيل أولاً . في عملية مبادلة مع تسعة ألمانين غربيين محتجزين في برلين الشرقية في آذار عام ١٩٨١ . ولحق بها غونتر بعد خمسة أشهر ، لكنّ طول الجدل حول إطلاق سراحه وبنوده أظهروا أهميته بالنسبة للسوفييت . فقد حُضر لمناقشة بنود إطلاق سراحه أو إعادته الجاسوس فولفغانغ فوغل ، الرجل الذي استبدل بيتر وهيلين كروغر مقابل إطلاق سراح جيرالد بروك والملاح غراي باورز بالجاسوس السوفييتي رودولف آبل . وبعد شهر من المحادثات استطاع في النهاية مبادلته بشكل غير

اعتيادي .

تمَّ إخراج غيلوم عبر الحدود في عربة مغلقة ، وكان وقتها في الرابعة والخمسين من عمره ويعاني من مشاكل في كُليتيه . وأطلق سراح أربعة من العملاء السوفييت البارزين منهم جورج مايور - الجاسوس الألماني الشرقي الذي اعتُقل في الدانمارك عام ١٩٧٩ - وهنريك بيرنهارد زورن - الجاسوس الألماني الشرقي الآخر الذي أمسكوا به في آب من عام ١٩٨٠ .

بالمقابل استلمت ألمانيا الغربية ٣٥ من مواطنيها المحتجزين في ألمانيا الشرقية بتهمة التجسس أو مساعدة الناس على الفرار إلى الغرب ، وسمح لـ ٣٠٠٠ من الألمان الشرقيين الذين هرب أقاربهم عبر جدار برلين بالعودة معهم . وكان على حكومة بون أن تدفع ثروة من الماركات تعادل ٢٥ مليون جنياً مقابل إطلاق سراحهم .

وأثناء عودته لوطنه ، أدار غيلوم ظهره لمعاش تقاعدي من ألمانيا الغربية قدره ١٢٥ جنياً بالشهر ، بعدما كان قد دفع ضريبة لمدة ٢٠ سنة في وظيفته . لكنه تلقى تعويضاً عندما اجتمع ثانية بزوجته - إذ تلقى حوالي ٤٠٠٠٠ جنيه من رؤسائه الألمان الشرقيين الممتنين له .

لم يكن ويلي براندت الدبلوماسي الغربي الوحيد الذي أسقطته جبهة عملاء الجاسوسية السوفييتية ، إذ أن الأساليب تختلف في العادة ، كما سنرى في الفصل التالي . . .

انضم موظف صحافة يعمل لدى منظمة الصحة العالمية في جنيف الى البريطانيين في آذار من عام ١٩٨٠ . كان إلبا غريغور يفيتش وجيركفيلوف ضابطاً في الإستخبارات الروسية خدم ثلاث سنوات في المدينة السويسرية - مركز الجاسوسية الحيوي . وبعد أن خطط بعناية لهروبه مع زوجته وابنته البالغة من العمر سبع سنوات فضح نتائج العملاء السوفييت في أوروبا الغربية - وخصوصاً في فرنسا وبلجيكا .

المنشقين : علاوات غير متوقعة

يمكننا أن نعذر قراء الصحف الغربية لاعتقادهم بأن الروس وحلفاءهم يربحون دائماً في الحرب الجاسوسية ، بعدما هزّت محاكمات الجواسيس والفضائح ، منذ عام ١٩٤٥ ، ثقة الرأي العام في جميع بلدان حلف شمال الأطلسي . لكن مقابل افتضاح أمر خائن غربي واحد ، كان هنالك اثنين من المنشقين عن روسيا أو شركائها في معاهدة وارسو . وكان تجنيد الغرب لخائن من الشيوعيين أو لعميل مزدوج لا يُفتضح أمره لسنوات ولسبب معقول ، إذ كان من الممكن إضاعة أهمية ما يكشفونه إذا تسربت أنباء خيائنه للاتحاد السوفييتي ، فيحاذروا من عملياته .

إن معظم المنشقين هم من العملاء ذوي القيمة المحدودة بالنسبة للاستخبارات في الغرب . فمعلوماتهم عن الرموز وأعمال الإستخبارات الروسية تُشكل جزءاً من أحجية المتقاطعات التي يمكن أن تقود إلى اختراق حاجز الحرب الباردة عندما تُضاف إلى الحقائق والمصادر الأخرى . ونادراً ما كان ضباط الإستخبارات يخونون قادتهم بطريقة تُغيّر توازن القوى الجاسوسية .

ففي عام ١٩٥٣ ، جندت الإستخبارات المركزية الأمريكية الملازم الكولونيل يوري بوبوف في موسكو . وأعطى بوبوف الضابط في هيئة الإستخبارات العسكرية السوفييتية ، الأمريكيين الأسماء الرمزية لحوالي ٤٠٠ جاسوس روسي في الغرب ، قبل أن يتم اغتياله بعدما خانه الجاسوس البريطاني جورج بليك . فتمّ التعرف على العديد منهم وتطويرهم .

وفي عام ١٩٦٠ ، تقدّم رجل آخر من الغرب . إذ قال الكولونيل اوليغ بنكوفسكي بأنه تحوّل إلى خائن لأنه خشي من أن يشنّ الزعيم الروسي نيكيتا خروتشيف حرباً عالمية نووية . فأخبر عن المئات من الجواسيس السوفييت في الخارج ، بما فيهم إيوجين إيفانوف ، المكلف بأعمال بروفومو . وقام بتسليم أكثر من ٥٠٠٠ وثيقة عن المصانع العسكرية والأسلحة الروسية ، خصوصاً الصواريخ . كما أُنذر عن بناء جدار برلين قبل إنشائه بفترة . لكن أكثر ما قدمه أهمية كان تعليمه لبطاقة الرئيس كينيدي في أزمة الصواريخ الكوبية .

حسب العالم أنفاسه خلال شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من عام ١٩٦٢ ، عندما لعب القادة السوفييت والأمريكيين بما بدا وكأنه لعبة على شفير حرب مُتَيْتة . إذ قام خروتشيف بتركيب صواريخ في كوبا ، على بُعد ٣٢٢ كم (٢٠٠ ميل) من الساحل الأمريكي ، وقد تم توجيهها إلى كل المدن الأمريكية الرئيسية . فقام كينيدي بزيارة الجزيرة ، وطالب بإزالة الصواريخ وتفكيكها . وبدا لعدة أيام بأن حرب الأعصاب ستؤدي إلى حرب عالمية ثالثة أو ذعر نووي . وفي النهاية بدا أن موسكو قد تراجعَت عن رأيها . فتم سحب الأسلحة مقابل تعهّد أمريكي بعدم محاولة تكرار مغامرة غزو خليج الخنازير . لكن الأمر الذي لم يعلم به أحد ، أن أوليغ بينكوفسكي كان قد حذّر من مخطط الصواريخ منذ نيسان عام ١٩٦١ ، وأبقى واشنطن على إطلاع بقرارات السوفييت في كل مرحلة من مراحل المواجهة ، مما أتاح لكينيدي اتخاذ موقف قوي واثق .

بعد عدّة أسابيع ، تمّ اعتقال بينكوفسكي ورجل الإتصال البريطاني غريفييل واين . وفي محاكمة علنية بموسكو في أوائل عام ١٩٦٣ ، تمّ الحكم على الروسي بالموت ، وعلى واين بالسجن لمدة ثمانية سنوات . أمضى الأخير من مدة الحكم ١٨ شهراً قبل مبادلته بغوردون لونسدايل ، مخطط حلقة تجسس بورتلاند . وادعى واين أثناء محاكمته بأنّه رجل أعمال بريء . لكن عندما أصبح بأمان بعد عودته إلى بريطانيا، نشر كتابين يتحدثان عن أعماله التجسسية .

في أحد هذه الكتب ، ادعى واين بأن بينكوفسكي أصرّ ، عندما أتى إلى انكلترا في مهمة تجارية ، على رؤية الملكة ، وتمّ تقديمه للورد مونبتاتن . أراد الروسي أيضاً أن يحصل على مكان سكن آمن في لندن متخفياً بالزي البريطاني ، وطالب بمبلغ ١٠٠٠ جنيه نقداً لشراء هدايا لأصدقائه في موسكو . فأثار بتصرفه التجاري هذا الشكوك من حوله وحول واين . فلو كانت هذه القصص صحيحة ، كيف تمكّن الروس من النجاة أثناء عمله لمُدّة سنتين تقريباً بالتجسس ؟

وصف كاتب الروايات الجاسوسية تشامبان بينشر ، في كتابه «داخل الرواية» الذي نشره في عام ١٩٧٨ ، بينكوفسكي بأنّه «أكثر أهمية (بالنسبة للغرب) من فيليبي لموسكو» . لكن عندما نشر بينشر كتابه «الخيانة تجارهم» في عام ١٩٨١ ، أصبح بينكوفسكي «في ذهن العديد من رجال مكافحة الجاسوسية البريطانيين . . عميلاً سوفييتياً ، ومفتاح كشف ممارسات التضليل المعلوماتية على أعلى المستويات

السياسية». وأصبح الإقتراح الآن بأن بينكوفسكي لم يُعدم رميةً بالرصاص ، ولم ينتحر في زنزانته كما ادعى واين . بل كان يعيش في عزلة بعدما استغفل الغرب وجعلهم يصدّقون أن الصواريخ الكويّة كانت هامة بالنسبة لخروتشيف . في الحقيقة كانت ممارسات الأزمة تهدف لحماية كوبا التي يحكمها الرئيس فيدل كاسترو ، وإبقائها مركزاً للمراقبة الروسية في أمريكا الجنوبية - وهو هدف تم تحصيله بالوعد الأمريكي بعدم الغزو .

تُعتبر عادة إعادة التقييم أمراً شائعاً في التجسس ، حيث يضع الزمن أحداثاً واحتمالات مختلفة وتصبح الحدود بين البطولة والجبن واهية وتكون العقول الشكوكة أولى خطوط الدفاع الرئيسية . ولقد خُدع الغرب بمنشقين لم يكونوا كما بدوا ظاهرياً . لكن في قضية بينكوفسكي ، أشارت الإجراءات الأمنية الحذرة في موسكو بعد اعتقاله إلى أنه كان ضربة غربية عبقرية موفقة . وتمّ تعيين الجنرال ايفان سيروف كرئيس لهيئة الإستخبارات العسكرية بعد عمل بوبوف ، وساعده على النهوض بمهامه عدة مساعدين بارعين ، وأحكمت الإستخبارات الروسية قبضتها على نشاطات هيئة الإستخبارات العسكرية السوفييتية . فتم استدعاء العديد من العملاء أو تركوا لعدة أشهر دون تعليمات في أثناء ما كان خبراء الجاسوسية يحاولون تقدير الأضرار التي تسبب بها بينكوفسكي .

بعد تسعة سنوات ، قطع الزعيم السوفييتي ليونيد بريجنيف زيارته لأوروبا الشرقية ليحضر اجتماعاً طارئاً في موسكو مع رئيس الإستخبارات الروسية يوري أندرويوف وضباطاً آخرين . وبنتيجة اجتماعهم ، تم استدعاء جواسيس الإرتباط من المكسيك وكندا وفنلندا واليونان وألمانيا وفرنسا ونيجيريا والشرق الأقصى . كان إقصاء ١٠٥ من الدبلوماسيين الروس وموظفي التجارة من قبل البريطانيين في ٢٤ أيلول ١٩٧١ وراء خوف الكرملين . حيث أن الإستخبارات العسكرية البريطانية والإستخبارات المركزية الأمريكية كانا على علم مسبق بأن معظمهم كانوا من الجواسيس . لكن انشقاق أوليغ أدولفوفيتش ليالين كان وراء الكشف عن المدى الكامل لنشاطاتهم التجسسية . إذ كان ليالين ضابطاً في الإستخبارات الروسية الفرع الخامس - المسؤول عن أعمال التخريب والإغتيال . وأقنع دليله رئيس الوزراء إدوارد هيث وسكرتير الخارجية السير أليك دوغلاس هوم بحيث حذراً موسكو إذا تواطئت ضد المبعوثين الغربيين فإن عملاء سوفيت آخرين

سيتم طردهم من البلاد .

وصل ليالين إلى لندن في عام ١٩٦٩ ، متذرعاً بأنه موظف في الوفد التجاري السوفييت . واكتشفت قوى الأمن بعد فترة بأنه على علاقة بسكرتيرته رغم كونه رجلاً متزوجاً وله عائلة في روسيا . كما أظهر حباً بالحياة الغربية المترفة . وفي شهر آب من عام ١٩٧١ ، أوقف شرطيان سيارته بعد أن شاهدوه يقودها بتهوّر . وأثبت فحص الدم بأنه تناول مشروباً كحولياً . ولم يكن لديه حصانة دبلوماسية ، ووضع أمامه الخيارين الحكم عليه وإعادةه إلى روسيا مخزياً أو التعاون . فوافق على التعاون مع السلطات مقابل عملية تجميلية تحميه من محاولات الإغتيال المحتملة . وكشف عن تفاصيل وصفها النائب العام السير بيتر راولينسون فيما بعد في البرلمان بأنها تنظيم التخريب داخل المملكة المتحدة وتصفية الأفراد الذين يُحكم بأنهم أعداء للإتحاد السوفييتي .

تم إعداد فريق من المخربين لإلحاق أقصى الضرر بمحطات الرادار البريطانية ومراكز الاتصالات ومواقع الدفاع الحساسة الأخرى في خلال ٢٤ ساعة قبل أي هجوم مفاجيء من قِبَل الإتحاد السوفييتي . وكان هدف ليالين المحدد هو نسف نظام الإنذار المبكر عن الهجوم الجوي في يوركشاير ؛ والذي يرصد الهجوم بالصواريخ . وكان لديه خرائط ترشده إلى موقعه ومواقع رجال قوات الصاعقة الروس على الساحل .

خطط ليالين أيضاً لإلقاء الطائرات ألغاماً على منطقة كلايد إيستوري والإيقاع بأسطول الغواصات الذرية في منطقة هولبي لوتش ، ليتم إغراق النظام الأرضي في لندن ، وتجهيز فرق من الخونة البريطانيين لمهاجمة القواعد الجوية البريطانية والأمريكية باستخدام أسلحة ومعدات موجودة في مخازن سرية أنشئت مسبقاً في الريف . وحيث أن خطط حلف شمال الأطلسي المحتملة تعتبر بريطانيا مهبطاً للطائرات الناقلة للتعزيزات الأمريكية في حالة الحرب التقليدية في أي مكان بأوروبا ، فإن معطيات وجود جيش مُدمّر قوي جاهز للهجوم على الدفاعات من الخلف تعتبر رهية . وشعر رجال الإستخبارات العسكرية البريطانية ورجال الإستخبارات المركزية الأمريكية بالأسف لأن ليالين عرف بضعة أسماء من الأشخاص المتورطين في العملية . وحذّر من شبكة استخبارات عسكرية سوفييتية موازية وتعمل بانفصال تام عن فرق الإستخبارات الروسية .

تقدم البريطانيون باحتجاج رسمي لوزير الخارجية السوفييتي أندريه غروميكو ، مع قائمة كاملة بالروس المبعدين إلى البلدان الصديقة ، ولاحقوا الذين

دلهم عليهم ليالين في داخل البلاد وخارجها . لم يتم التصريح علنياً عن تفاصيل معينة متعلقة بمدى استعدادات السوفييت لمهاجمة دول أخرى في زمن السلم ، ربما بسبب الخوف من الرعب الذي ستسببه . لكن قوات مكافحة الجاسوسية في الغرب لم يُعد لديهم شك بأن عملهم أخذ بُعداً جديداً شريراً .

تمّ التعامل مع غالبية انشاقات الستار الحديدي من قبل الأمريكيين في الخمسينات وأوائل الستينات . وكان لدى الإستخبارات المركزية الأمريكية مخزونا أكبر بكثير من الإستخبارات العسكرية البريطانية بفرعيها ، وكان بإمكانها توفير الوقت والمال للمهمة المعقدة الهادفة «لعكس» نشاطات العميل السوفيتي . كما أصرّ العديد من الجواسيس الهاربين من الإستخبارات الروسية أو الوكالات الروسية في البلدان الأخرى على أن تبقى الإستخبارات المركزية الأمريكية بريطانيا في الظل لأن الإستخبارات العسكرية البريطانية قد تسلل إليها جواسيس من موسكو . وقد تعلم المنشقون درساً من إخفاق فولكوف المذكور آنفاً . كان إيغور غوزنكو وأناتولي غوليتسين والبولندي مايكل غولينيفسكي كانوا ثلاثة من الروس تسللوا بسبب خيانة جاسوس بريطاني . واعتبر رجال الإستخبارات البريطانية انشقاق أوليغ ليالين كدليل على تخلصهم من الجواسيس واصطادوا بعد (١١) سنة سمكة أكبر .

وُصِفَ فلاديمير أندريفيتشي كزيتشكين من قبل أحد مصادر المخابرات كأثمن اصطياد للغرب خلال ٣٠ عاما عندما وصل إلى لندن مع أضيابير مليئة بأسرار السوفييت في تشرين الأول من عام ١٩٨٢ ، وأخذ الى مخبأ في ساسكس ليحقق معه البريطانيون والأمريكيين . كان نائب القنصل الروسي في العاصمة الإيرانية طهران هو قائد الإستخبارات الروسية في الشرق الأوسط ، وجلب معه إسقاط شبكة التجسس هناك وفي أوروبا الغربية ، وأكمل الرموز الإسمية ورموز الأنظمة والتعريف بالعملاء ومساعدتهم وتفاصيل عن عمليات الإستخبارات الروسية .

تمّ الحصول على معلومات من كوزيتشكين أكثر من غالبية المنشقين ، ربما لأن هيئات التجسس كانت ما تزال تذكر الضربة الأليمة التي تلقتها في قضية جيفري برايم ، التي سنمر عليها فيما بعد . واحتاج الغرب لعقل حازم - وكان كوزيتشكين ذاك الحازم . وتمّ التلميح إلى أنه عمل كعميل مزدوج للبريطانيين لمدة خمس سنوات ، وقد تم إغرائه بحبّ فتاة مصرية المولد تعمل لصالح الإستخبارات العسكرية البريطانية في طهران ، فكانت فائدته لبريطانيا وأمريكا كفائدة فيلبي لموسكو في ذروة عطاءاته .

كانت مهمة كوزيتشكين الرئيسية في طهران أن يقوم بتسليم العملاء إلى الحزب الشيوعي الإيراني ليساعد في محاولة إخفاق الثورة الإيرانية ، التي كانت

أقل تجاوباً مع رغبة الكرملين . لكنه كان على اطلاع أيضاً بالمواد الحساسة للإستخبارات الروسية التي تؤثر على التجسس في الشرق الأوسط وبلدان حلف شمال الأطلسي . وفي عام ١٩٨٢ ، عرف قادته البريطانيون عن أنه كان على وشك أن يفتضح أمره كخائن . ولما لم يتمكنوا من إخراجه من إيران بسرية ، فقد اتفقوا مع البوليس السري الإيراني . فسلموهم كوزيتشكين ، وقدموا الدليل الكافي على اعتقال زعيم الحزب الشيوعي الإيراني حسين زاده ومئات من الموالين له . وتم القضاء على التأثير السوفييتي داخل إيران . وأخذ المنشق إلى باريس ، وتسلمه البريطانيون - بينما اختارت زوجته عدم اللحاق به .

حسب البروتوكول الدبلوماسي ، سُمِحَ للسفير الروسي في لندن بطلب لقاء مع كوزيتشكين . لكن الجاسوس القادم من الحرب الباردة لم يهتم بذلك . إذ عرف بأن معلوماته ستجبر الإستخبارات الروسية على إعادة النظر في عملياتهم في عشرة بلدان على الأقل . ومن المستبعد أن يشكروه على ذلك .

وصل رودولف آبل ، الكولونيل في الإستخبارات الروسية مع خبرة أكثر من ثلاثين عاماً ، إلى نيويورك في عام ١٩٤٨ لبناء شبكة بديلة لتلك التي أنشأها الجاسوس ياكوفليف وفضح أمرها إيغور غوزنكو . فاستقر في بروكلين تحت اسم ر . غولدفوس الفنان والمصور والمستمع الإذاعي المتحمس ، وأعجبت به موسكو بسرعة بسبب دفع الأسرار عن الأسلحة والصواريخ النووية التي سرّبها . وفي عام ١٩٥٤ ، أرسل الكرملين ونيوها يهانيين إلى أمريكا ليساعد بالاتصالات . لكن القادم الجديد كان مزعجاً وسكيراً . ودبّر آبل لإعادة استدعاء هايهانيين . لكن المساعدة بالتجسس كشفت أكثر من وجهه وأكسبته غضب سادة الجاسوسية العامل لصالحهم . إذ تم اعتقال آبل على أساس دليل هايهانيين ، وحُكِمَ عليه في عام ١٩٥٧ بالإعدام على الكرسي الكهربائي . وبعد طلبات الإسترحام التي قُدِّمت لصالحه ، تم تنزيل الحكم إلى ٣٠ سنة ، وفي عام ١٩٦٢ ، أعيد الى روسيا بمبادلة مع فرانسيس غراي باورز - الملاح الجاسوس الذي أسقطت طائرته فوق سفير دلوفسك قبل عامين .